

لويس التاسع في الأسر

بقلم محمد سمير المصري

(ق صيف سنة ١٢٤٩ قاد لويس التاسع الحملة المملوكية السابعة الى مصر في أسطول ضخم على ظهره أكثر من ٥٠,٠٠٠ من الصليبيين ، فاستولى على دمياط ، المينا ، انصرى العظيم في ذلك الوقت ، وأوغل في البلاد محاذيا فرع النيل الشرقي حتى بلغ المنصورة ، وهناك دارت عليه وعلى جنده الدائرة ، فأبى جيش الصليبيين أو كاد ، ووقع لويس التاسع نفسه في الأسر ، واقتيد إلى دار الوزير فخر الدين بن لقمان بالمنصورة ، حين كانت الحمايات دائرة بين الجيشين حول شروط التسليم . . .

وكان علي عرش مصر في ذلك الوقت ، شجرة الدر ، زوجة الملك الشهيد:
الصالح نجم الدين أيوب)

كانت الشمس قد غابت ولكن للسماء لم تزل مصطبغة بلون الشفق ، حين أرسى زورق صغير على شاطئ المنصورة ، فهبطت فيه سيدة ملثمة تحب في ثياب فضفاضة قد سترتها من قبة الرأس إلى إخص القدم ، فلا يبدو منها إلا عينا تبصان فيهما قلق وريبة ، ثم هبط وراءها من الزورق شابان فارعان في ثياب الفرسان لهما سميت ومنظر وفي عيونهما مثل ما في عيني السيدة من الريبة والقلق ، وكأنا أرسى الزورق على هذا المكان من ذلك الشاطئ . في هذه الساعة من الليل ، لم وعد قد حدد بدقه ، فلم تسكد السيدة والشابان يهبطون إلى الأرض حتى أقبل شابان في ثياب الحرس السلطاني ، فتلايين يدي السيدة وانحنيا انحناء خفيفة للتحية ، ثم استدارا إلى الطريق ، ومشيا تتبعهما السيدة وزميلها ، لم يتحدث أحد منهم إلى أحد ، كأنما هي خطة مرسومة قد عرفها كل واحد من الخمسة تفصيلا فلا حاجة به الى أن يسأل ولا أن يجيب . ومشت

السيدة يسبقها شابان ويتبعها شابان كأنما يقيس كل منهم خطوته حتى لا يتأخر
عن موضعه من زملائه شيئا أو يتقدم، على أن السيدة فيما يبدو لم تسلك ذلك
الطريق من قبل منفردة ولا تصاحبه، فقد كانت حركة رأسها في ذلك الطريق
تنبئ عن رغبتها في أن تحقق النظر في كل ماتقع عليه عينها صور الطريق، أو
لعل ذلك كان مظهرًا من مظاهر القلق النفسى الذى يبدو في نظرة عينها.

وظلوا يمشون حتى انتهوا إلى بناء قائم في طرف المدينة، قد انبسط بين
يديه فناء واسع وقام على بابه بواب غليظ العنق عريض الصدر في عينيه جد
وصرامة، وفي وسطه منطقتة قد تدلى منها خنجر في جرابه لا يبدو منه إلا مقبض
عاطل من التويبه والزخرف، فلم يكذب يقترب منه هؤلاء نفر الخمسة حتى خلى
مكانه إلى جانب الباب ليفسح لهم الطريق، فلما صاروا بازاء الباب دفع أحد
الشابين مصراعه بيده فافتتح، ثم وقف ووقف زميله وانفرج بينهما طريق
نفذت منه السيدة إلى الباب يتبعها الفارسان الشابان، ثم انصفق وراءهم الباب...
وكان لويس التاسع جالسا في جانب من الغرفة على حشية منصوصة على
بساط ذى تصاوير، وقد أسند ظهره إلى وسادة على الحائط، حين سمع على
الباب طرقا خفيفا، فقال في صوت خافت كالمس :

— ادخل ...

فدخلت السيدة وخلفت الشابين ينتظران خلف الباب، فلم تكذب توسط
الحجرة حتى رفعت عن وجهها اللثام ونضت عن جسدها ذلك المعطف السابع،
فلم يكذبواها لويس حتى صاح في لهفة وقلق :

— مرجريت ! ما جاء بك ؟

وهب واقفا، ثم اندفع إلى زوجته مشوقا قلقا قد توزعت الخواطر
واختلطت به مذاهب الفكر.

قالت مرجريت فى هدوء :

— جئت لأقيم معك فى هذا الأسر يا لويس، حتى يأذن الله بالفرج !

— ماذا ؟ أتبلغ الغاظة هؤلاء الأوغاد أن يقودوا إلى الأسر مرجريت

دى بروفانس لأن زوجها كان معهم فى حرب مشروعة؟
- رويدك يا لويس ، فاقادنى أحد إلى الأثر ، وإنما استأسرت لهم
طائفة لاؤنس وحشتك يا حبيبي !

- أنت تستأثرين لهؤلاء الكفار طائفة من أجلى يا مرجريت؟
- من أجلك يا لويس ، فما تطيب لى الحرية وأنت فى وحشة الأسر لا تجد
من يؤنسك ويسرى عنك ، فهل يسوءك يا لويس أن تشاطرك زوجتك
آلامك ، لتنال معك من نعمة السماء أجر الجهاد والصبر؟

« الآلام .. والجهاد .. والصبر .. » ما أعظم ما تصفين يا مرجريت وما
أقل ما تستحق من الأجر ، أما وقد كان ما ترين فأننى لم أفعل شيئا إلا أن
سفكت دم عشرات الآلاف من أهل الصليب ، فعلى رأسى هذه الدماء جميعا
يا مرجريت !

- تلك إرادة السماء يا لويس ! وماذا كنت تملك أن تفعل خير ما فعلت؟
- كنت أملك أن أموت على صهوة جوادى وفى يدي سيفى يقطر من
دم هؤلاء الكفار !

- ومن يثأر لك ولأولئك الآلاف لو كان ذلك يا لويس؟
- وهل تأملين يا مرجريت أن أعود إلى الحرية فاثأر لأولئك الآلاف؟
- ستعود إلى الحرية يا لويس ، وتعتلى صهوة جوادك ، وتروى ظمأ
سيفك من هؤلاء الكفار ، وتثأر لمن قتلوا من الشهداء !

- هيهات يا مرجريت أن يطلق هؤلاء المسلمون لويس ملك فرنسا
وقد حصل فى أيديهم ، إنهم ليعلمون ما يحمل لهم فى صدره من البغضاء وما
يتمنى لهم من أمانى السوء !

- بل سيطلقون سراحك يا لويس إذا أدبت لهم ما يطلبون من مال ،
فهل جاءك أنهم قتلوا مليكهم ولم يستقر على عرشه بضعة أسابيع ، لأنه هم أن
يسألمهم فيما أنفقوا ما خلف أبوه من المال ؟ المال يا لويس هو الذى أغرام

بملكهم فقتلوه شاباً في عنفوانه ، وهو الذى يخرجهم بأن يردوك إلى الحرية
لتبهاً للثأر !

— يا ليت يا مرجريت ! ولكن من ذا يدفع عني ما قد يطلبون من القدية
ويداى مغلولتان ؟

— سيتبارى رعاياك من أبناء فرنسا ، والمسيحيون في شتى بقاع الأرض
ليدفعوا قدية القديس لويس ويردوا إليه حريته .

— آه ! ما أطيّب قلبك يا زوجتى المحبوبة ! إن المسيحيين وأبناء فرنسا
على السواء يا مرجريت ، لا يحبون لويس إلا حين يقودهم إلى المغنم ، أما
لويس الأسير في دار موحشة من بلاد الكفر ، فليس يخطر على بال أحد أن
يفتديه بدم أم مال . أم حسبت كل هؤلاء الآلاف الذين كان يقودهم لويس
من مرسلية إلى دمايط فالمنصورة كانوا يتبعونه لشيء غير طلب الغنيمة والمجد ؟
— أوه ؟ أذلك قولك يا لويس ؟

طأطأ الملك الأسير رأسه في انهكسار وهو يقول في صوت خافت كأنه
بين يدي قسيسه يعترف بما أسلف من خطايا :

— نعم يا مرجريت ، لقد خرجنا باسم الصليب نطلب المجد في الأرض
فستحققت فينا مشيئة الرب وانهينا إلى الرأس والهوان والمذلة !
قالت الملكة في همس :

— لله شجرة الدر ! كأنما كانت تقرأ في لوح مسطور وراء الغيب ما سمعته
أذنأى الساعة !

— ماذا يا مرجريت ؟

— لا شيء يا لويس ...

— ولكن كلمات هامة كانت تهرق على شفئك ...

— كنت أعيد ما وعته أذنأى من حديث شجرة الدر .

— شجرة الدر ؟

- نعم ، ملكة مصر والشام ووارثة عرش صلاح الدين .
- أو صارت ملكة ؟
- نعم ، وإنما لأهل لما بلغت !
- وماذا وعته أذاك من حديثها !
- ما كنت تقوله لى الساعة يا لويس ...
- لم أفهم ما تعين يا مرجريت .
- قالت لى : إنما خرجتم باسم الصليب تطالبون المجد والغنيمة ، فحق عليكم أن تنتهوا إلى الأسر والهوان والمهزلة !
- كذا قالت ؟
- نعم ، وكدت أرد عليها قولها وأترك مجلسها غير معتذرة .
- ثم ماذا ؟
- ثم كظمت غيظى واحتملت اللطمة من أجلك يا لويس .
- من أجل أنا ؟
- نعم ، فما سمعت إلى لقائنا إلا لأسأله بما جلبت عليه كل أنثى من العطف والرحمة ، أن تأذن لى فى لقائك والتحدث إليك ساعة ، وقد أذنت لى أن أحضر إليك تحت الليل فى حراسة اثنين من فرسان الداوية ، وأصحبتنى اثنين من حراسها ليدلانا على الطريق ويدفعا عنا ما قد يعترضنا من شر السامة ، فإن شئت يا لويس بقيت إلى جانبك فى هذا المعتقل حتى يأذن الله بالفرج .
- صمت الملك برهة يفكر ، ثم رفع رأسه قائلاً :
- ولكنى لا أشاء يا مرجريت !
- لماذا يا حبيبى .
- لأنك تستطيعين فى حريتك أن تسدى إلى يدا ، إذا رضى المسلمون أن أقتدى نفسى بمال .
- وإذن فأنت ترى أن أغود إلى دمياط لأحتال فى جمع ما قد يطلب المسلمون من مال القديّة ؟

- نعم ، وإلى اللقاء يا مرجريت !

- إلى اللقاء يا لويس !

وعادت الملكة أدراجها ، وعاد الملك فجلس على حشيته مستندا إلى ومادة
على الجانب يفكر وانصفق الباب وراء الثلاثة ، وتقدم الحرسيان السيدة
الملثمة على الطريق ويتبعها الفارسان حتى انتهوا إلى شاطئ النيل ، وهبطت
السيدة إلى الزورق ثم تبعها الشابان ، فانساب الزورق على سطح الماء مبحرا
إلى الشمال .